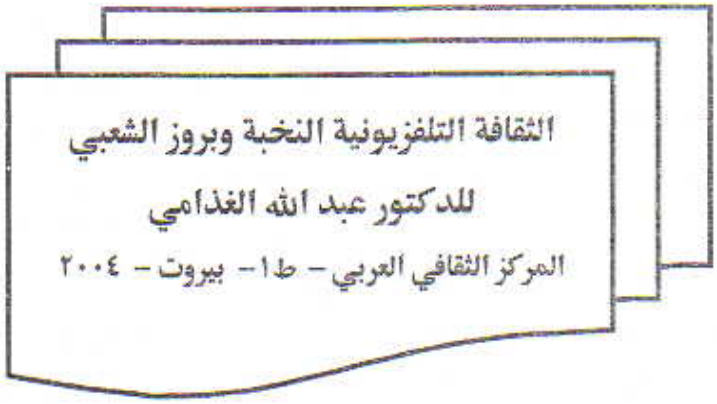

عرض وتلخيص

م . م إشراق سامي عبد النبي

مركز دراسات الخليج العربي–جامعة البصرة

((إن مقولة الغزو الثقافي ليست مقولة واهمة هدفها المبالغة في تمزيق ألذات ، فالشباب الذين يلبسون الجينز ويأكلون الوجبات السريعة هم أنفسهم الذين يقفون ضد سياسات الهيمنة . هذا ما يحصل في بلادنا كما يحصل في أوربا))

ليست هذه المقدمة هي لكتاب سياسي . يحلل ويناقش المواجهة الحادة بين الثقافات والحضارات المختلفة من وجهة نظر سياسة .. لكنه كتاب تناول التلفزيون بوصفه الوسيلة الحضارية الأكثر عصرية والأكثر حضوراً وتأثيراً من أية وسيلة أخرى في عملية مزج القيم الحضارية والفكرية العالمية من خلال طرحه إياها دون استئذان .. فهذا الجهاز بما يمثله ويعرضه من قيم وأفكار قادر على اقتحام أي مجتمع حديث وبالتالي إقناعه بأفكار وسلوكيات معينة .

لقد حاول الكاتب السعودي الدكتور عبد الله الغذامي في كتابه الأخير هذا قراءة ومناقشة الصورة التلفزيونية من حيث كونها علامة يمكن ان تُقرأ ثقافياً ضمن نسق معين .

((لقد ثبت ان الصورة لا تقاومها إلا صورة تملك الدرجة نفسها من القوة والتعبير والمصداقية فالصورة اليوم هي ثقافة وفكر وإنتاج اقتصادي وتكنولوجي وليست مجرد متعة أو محاكاة فنية هي لغة عصرية يشترط فيها تطابق القول مع العقل وتمثل الحقيقة التكنولوجية ان الصورة علامة تكنولوجية ومؤشر إنتاجي ومنطق مستقبلي)) .

وقد كانت للكاتب مساهمات فاعلة في مجال النقد الثقافي الذي يعد النقد الصوري فرعاً من فروعه فالصورة ليست كلمة محايدة أنها الطريقة الأسهل والأكثر سهولة في إيصال رسالة ما إلى طبقة واسعة وعريضة من الناس بمختلف انتمائهم ودرجة وعيهم إذ يعد الإعلام التلفزيوني المبرمج والمدروس كفيلاً بإنتاج صورة قادرة على التأثير والإقناع خاصة ونحن نعيش في مرحلة ثقافية تلعب فيها أيدلوجيا الصورة دوراً خطيراً .. هذا ما أكد عليه كتاب (**الثقافة التلفزيونية**) من خلال متابعته لظواهر عديدة عبر الصورة .

وبشكل عام يمكن تحديد قسمين في هذا الكتاب الذي يحوي فصولاً ثمانية . القسم الأول تحدث عن الصورة بوصفها دلالة ثقافية متناولاً أمثلة تلفزيونية وسينمائية عديدة ..

أما القسم الثاني فقد ناقش ظواهر حضارية مثل الحجاب , الإرهاب لكن من وجهة نظر الصورة التلفزيونية وطريقة تسويقها لهذه الظواهر .

يرى الكاتب ان البشرية قد مرت بمراحل مختلفة للتعبير ؛ كان لكل مرحلة أدواتها ووسائلها الخاصة وهي :-

١. المرحلة الشفاهية
٢. مرحلة التدوين
٣. مرحلة الكتابة
٤. مرحلة ثقافة الصورة

والانتقال من مرحلة إلى ثانية لا يعني بالضرورة نهاية المرحلة التي تسبقها تماماً ؛ لكن التقليل من فاعليتها . فالتدوين مثلاً لم يلغ الشفاهية تماماً بدليل تداول الشعر وحفظه شفوياً مثلما لم تقض الصورة التلفزيونية عن الكتاب بوصفه وسيلة ثقافية إلا انها غيرت الكثير من إحداثيات الثقافة .. وقد ناقش الغذامي هذه المسألة نقاشاً مفصلاً ...

ان هذا الانتقال بين صيغ التعبير المختلفة مثل انتقالاً أيضا في نوعية الفئات المتعاملة مع هذه الثقافة .. فالتحول من الكتابة إلى الصورة كسر الحاجز الثقافي والتمييز الطبقي بين الفئات فسقطت النخبة التي كانت قادرة على القراءة وشراء الكتب ودخلت عالم الثقافة فئات جديدة هم الناس المهمشون الذين لم يكن لهم صوت في دنيا الأدب والثقافة .. انهم الجماهير العريضة التي تفتقر إلى وسائل الثقافة النخبوية لأنها لا تعرف القراءة والكتابة أو تملك التعليم الذي يؤهلها لمقاربة النصوص الأدبية ونقدها ناهيك عن المال اللازم لشراء الكتب ومتابعة فنون الأدب.وهؤلاء المهمشون هم أكثر الفئات استهلاكاً للصورة التلفزيونية وتأثراً بما تسوقه هذه الصورة من قيم وأفكار سلبياً وإيجابياً .

يلعب جهاز التحكم سلطة غير عادية لأنه ينقلك من صورة إلى صورة ولا يسمح لك بالانتقال أو العودة إلى الواقع ولذا يزيدك إمعاناً في الصورة ويخدعك بالتحريك الوقتي والسريع غير المرغوب فيه . إذ لم تعد الصورة محايدة أنها تؤسس لنفسها واقعاً خاصاً يعود بالكائن البشري إلى وحدانيته من خلال خصوصية وفردية التأويل بسبب الحرية الفردية في اختيار صورة الشاشة . الحرية التي مكنت الأصوات الصامتة والمهمشة ان تكون قادرة على التعبير عن نفسها من خلال الثقافة العريضة التي يمثلها الزخم الشعبي مثل مشاهدي برنامج سوبر ستار الذين تجاوزوا العشرين مليوناً في مقابل ثقافة النخبة المحدودة فأي كتاب عربي لا يطبع أكثر من ثلاثة آلاف نسخة((**إذ لم يمر بتاريخ البشرية فترة كان الفكر فيها شعبياً**)).

تلعب الصورة الدور المزدوج بين عمل مطلوب وعمل مرفوض بين محبوب ومكروه وكلما تعرضت الصورة لحقوق الذات المصانة تداعت نوازع الخوف الأسطوري من الصورة .

الصورة تخيف لأنها تكشف ... فهي قادرة على الفضح وعلى توثيق اقتحامها للخصوصية وإعلانها لها دون استحياء . هذا الفضح الذي تخشاه النخبة لأنها تمثل في الغالب صوتاً مؤسساتياً، وهو خوف تقليدي مغروس في النفس البشرية فلم يبقَ من فنون الأدب إلا ما هو قريب من الصورة والدراما مثل الرواية والخطاب السردي عموماً ، فالسرد خطاب ثقافي قائم منذ زمن الشفاهية عبر الحكاية ويعود له المجد الآن مع ثقافة الصورة في حين تتلاشى فنون قولية أخرى مثل الشعر لارتباطه الشديد بالنخبوية والفحولة

بعد أن فصّل الغذامي في الحديث عن نسق الصورة وأثرها في النسيج الاجتماعي للناس في كل مكان .. بدأ بالتركيز على ظواهر أو لنقل علامات يمكن ان تقرأ ضمن نسق معين وهي بالتأكيد ظواهر ابرزتها الشاشة التلفزيونية وأكدت عليها وخلقت من صورتها وعياً معه المشاهد أما مفرطاً في تصديقه أو مفرطاً في تكذيبه . من هذه الظواهر اللباس بوصفه لغة فالأزياء ليست اختياراً لكنها جملة ثقافية وقد اختار الكاتب التيجان عند الملوك والعمة عند العرب فاللباس بوصفه صورة تلفزيونية تتحرك في إطار الثقافة البصرية كلغة للجسد وكلامه تتخذ من اللون والشكل مرجعيات تأويلية وثقافية .

فلا يمكن للباس ان يكون محايداً ، وبما انه صورة ثقافية فهو يحمل قيم التأويل المصاحبة له ..

وقد كان لصورة المرأة في التلفزيون أيضا نصيب وافر من هذا الكتاب فقد وجد المؤلف أن التلفزيون أداة ذكورية . مشيراً إلى تاريخ المرأة الطويل في التسطيح فقد مرت

بمراحل طويلة حتى وصلت إلى شاشات التلفاز التي لا تزال تسوق المرآة بطريقة لا تختلف كثيراً عن النسق الفحولي الذي شكل الثقافة بشكل عام بل لعل الصورة التلفزيونية كانت أكثر مغالاة في تأطير المرآة بإطار من التفاهة .

لاشك في ان اختيار الكاتب للصورة التلفزيونية كان اختياراً موفقاً لما تمثله من ثقافة سمعية وبصرية متاحة للجميع على اختلاف درجات وعيهم وهي بالتالي تملك قدرة خاصة لم تملكها ثقافات سابقة بان تحتل مساحة عريضة من الجماهيرتقترب منها وتعبر عنها ... وقد وفق الكاتب أيضاً في قراءة الصور التلفزيونية بوصفها علامة دالة تحيل إلى انساق ثقافية قراءة ذكية مستشهداً بالعديد من الصور ..